

(٥)

العروة الوثقى

بين قبله وبعده لقائه

هو وجود الله لسابق وجود الله

وهو وجود الله للاحق وجود الله

في مطلق الوجود اللانهائي لله

حديث الجمعة

٨ محرم ١٣٨٦ هـ - ٢٩ أبريل ١٩٦٦ م

بسم محمد الله.. بسم محمد محمد.. بسم محمد الناس.. بسم اسم الله.. بسم الحق من الله.. بسمه اللهم.. بسم الله.. بسم الله الرحمن الرحيم.. باسمه نبدأ، وبه نستعين، وبحقه بنا نعوذ لنبين.

عليه نتوكل، وبه نقوم، ولأنفسنا، ونلخير أنفسنا نعمل، نشقى ونسعد، في لا إله إلا الله.

{قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ}١ هذا محمد الناس، الناس جميعا في قابلياته يصلحون لصلاحيته، كافة للناس أبرز، قدوة لهم ليكونوه.

{وإنك على خلق عظيم}٢.. هذا محمد محمد، محمد نفسه، عرف نفسه فيما قدمت وأخرت، وفيما به من الحق بعثت، ولم يتجاوز في الله وضعه ولا في الناس أمره.

{وقل جاء الحق وزهق الباطل}٣.. هذا محمد الله، فرغ من كل ما سوى الله، فقام نصبا وقبلة للناس، وبيتا يذكر فيه اسم الله.

أبرز الله، آدما مجددا وجديدا لإنسان الله، بمن عرفناه محمدا رسول الله وعبدته، علّمه الأسماء كلها، وأظهره على الدين كله، فتواجد على ما وجد، وقد كشف له عنه غطاؤه فوجده ضالا على ما هو، ووجده فقيرا على ما هو، ووجده يتيما على ما هو، فعرف نفسه على ما هي، فقيرا عفا عن طلب

الغنى، غنيا بقناعته، قانعا بحاله، مستغنيا عما يفتقر إليه الناس، بما سخر له الله. (كن غنيا عن شئت، تكون أميره، وكن فقيرا لما شئت تكون أسيره)؛ فكان غنيا بفقره في فقره، برضائه بأمره.

سار في طريق الحياة المستقيمة بفطرته، ضالاً عن غايته، مدركاً لأمر حيرته، راداً نفسه إلى قديم، طلباً لحي أبوته، قدرها في قائمه، وقدره بها في قادمه، فأمن بوجود وجودها لقايم وجوده بها، ولكن ماذا من قبل؟ وماذا من بعد؟ من الذي أوجد من منه تواجد؟ ومن الذي يبقى بعد الذي أوجد؟ حار في أمره وأمر موجده، فكان بذلك عالماً حكيماً، فلم يسلك مسالك قومه الذين وجدوهم على أمة واهمين، بما وجدوا عليه آباءهم فكانوا بأنفسهم ضالين، في متابعة الغافلين، يوم اقتفوا آثار آباءهم فانيين، على ما كانوا فيه من دين.. للأصنام ركعاً سجداً عابدين.. وللأوهام عبداً خاشعين، لا يعرفون حقاً قديماً أو قائماً يبقين منه تواجدوا، وإليه يعودون، ولا يطلبون حقاً جديداً في قادم يرجون، وله يعملون.. ولا يروهم عن أوهامهم راجعين، شعورا بافتقار إلى الحق أو إلى الوعي أو إلى الحكمة لصالح أمرهم ينشدون ويعملون، فلا أمر آباءهم يتدبرون، ولا في أمر أنفسهم يحارون، ولا لأمر أبناءهم بمجديد يطمعون، فيبيئون ويعدون لمستقبلهم قلقين، ففارقهم الرسول في أمرهم بمجانبته لهم فكان بذلك مجاهداً مستقيماً وطارقاً للباب، وأمام الباب مقيماً، فلها أثر عمله، وآمن بوعيه، وعبد للروح معه قائم نفسه، عرف الإسلام لمعلومه دين الفطرة، فدعا إلى ما عرف، بعد ما كلف.

افتقده لنفسه في حيرته، من يكون؟ ولن يكون؟ ومن له يكون؟

فأرجع النظر والتأمل إلى آباءه، فوجدتهم في معناهم لمعناه، على عينه، وعين معناه، فليس يهم لإدراكه عنده، ما يرجو لأمر نفسه.

وتأمل في قادمه علماً يأمل تحقيق مراد بعرفان، فيما قد يكون فيه أبناءه يوم يكونون على ما يكونون، بما تصور أنه لهم ربما يكون، ولكنه عاد فأدرك أنه كائن، من أبناء كانوا، لآباء وجدوا، وأنه في آباءه سيكون على ما هو كائن، فإلى أي أمر هو يؤول ليكون؟ هذا ما يجب أن ينقب عنه فيه بهمته في حاضره وقائمه.

ارتد إليه البصر، كلها تجول، وكلها فكر، وكلها لأمره تدبر، وتأمل في كل ما عقل، فعرف بما عقل أن ما لم يعقل ما كان إلا على عين ما عقل، فإلى أين المصير؟ ومن أين هذه الكينونة؟ إنه بقائمه بها زائل، وإنه مهما تجدد بها بأبنائه يزول، إنه بها في الآباء زال، وفي الموجود يفنى، وفي العقب يزول، ولا يبقى، وهو بحاضره لا يدرك لشيء من أمر قديمه، لفرض تواصله باتصاله على ما قدر، فما يكون الحال؟ وما يكون المآل؟ وما كان من أمر ما زال؟

فهل هذه هي الحياة؟! فما يكون الأمر؟ بذلك صلح أن يثير عطف أصوله من الآباء الأحياء، وعطف فروعهم من قادم الأبناء الأحياء، فنظر إليه من القديم بحقائقه شديد القوى، من أصول وجوده، وهو بالأفق الأعلى نظرة الآباء بقائهم إلى أزل، بنظرهم إلى قائم الأبناء لهم من خلاله نظرة الحياة المحيية إلى أبد.

ثم دنا فتدلى أقربهم إليه وألصقهم به فكان قاب قوسين أو أدنى، فأوحى إليه ما أوحى، فبعث الولد بأبيه، بقائم الحق فيه، وأوحى محدثه إلى باقيه، بناموس الحياة بالحق للإنسان بالأب وبنيه، ونطق بالصدق، وحقق لنفسه ولمن حوله، السكينة والأمن، والسلام والعلم، فكان كتاب الإخلاص، وسفينة الخلاص، وركب الحياة، وموكب النور، عروة وثقى، بين قديم الإنسان إلى أزل، وقادم الإنسان إلى أبد، لقائم الإنسان في قيام سرمد، فقام آدم خلق وأول عابدين، وبعث إنسان حق وأول بيت وضع رحمة للعالمين.

{وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد}° ولك جعلناه، ولبسنا عليك ما لبست بينهم رسولا من أنفسهم، فكنت لنا لباسا به تدرنا، وناسا بأحد جمعها تعارفنا وتلاقينا، فكنا لك بمن لأنفسنا كان ليكون قائم ظلال نفسك كوثر اصطفيناك، وبصبغة الحق للإنسان في سرمد صبغناك.

كنت قلبا لا تأخذه سنة ولا نوم، به كنتنا، وكنت قالبا، أسلم لقلبه، فاستقام بجوارحه لنا، واستجاب للناموس عندنا.. فكنت وجودا من وجودنا، وعبدا من عبادنا رضيناه لنفسنا، وجعلناه قدوة لخلقنا.

لم ينفصل القلب عن القلب، ولا القالب عن القالب، فبذلك كنت الناموس لوجودك، يوم كنت على خلقك، هذا الخلق العظيم، فطرة الوجود، موجودا لعين الأكبر من الوجود مشهودا، فأبرزناك في العوالم هيكلًا للشهود، وقبلة للسجود، ونصبا للطواف حول المذكور في بيت المعبود {فإذا فرغت فانصب}، ومزيدا من الله فاطلب، وإلى ربك فارغب، لك منه عطاءً غير مجذوذ لمراقبك لذاتك وظلالك ومعانيك، ولسوف يعطيك ربك فترضى.. قل جاء الحق وزهق الباطل.

إن يوم الفصل كان ميقاتا، وإنه لهم لقريب، فاصفح الصفح الجميل، يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها، وها أنت بعلمها بقائهم، مشفق منها وبأخع نفسك على آثارهم ليجنّبوها وليكونوا بجوارك لساعتهم يوم يلاقوها، فعسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا عندهم، فيتبعون الداعي لا عوج له، وتخشع الأصوات للرحمن، فلا تسمع إلا همسا، كأنهم إلى نصب يوفضون، أنت من هذا قاب قوسين أو أدنى لقادم أمر لك، يصدر عنك، ما داموا لا يستقبلون الرحمة، إلا مع حامل لها بقهر، وبظاهر من جهر.

فإذا فرغت فانصب، وإلى ربك فارغب، كلما قمت وتقلبت في الساجدين، إنا أعطيناك الكوثر، فلن يغيب لك باسم الحق بين الخلق مظهر.. تقوم وتقلب في الساجدين بما جعلنا لك من نور تمشي به في الناس. ومن الليل فتجد به نافلة لك. بك تبعث النفوس من ظلامها بنورها مشرقة، وبنارها محرقة.

باسم الله نتكاثر، وبنور الله تنتشر، وباللله تذكر، ووجه الله تذكر، ورحمة الله تشكر، وقدرة الله تصبر، إذا ظهرتنا، فتناسك، وإذا تواجدتنا، فلا تذكرك إلا مولاك {قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون}٧.

دع الناس على ما هم الناس {فذكر إن نفعت الذكرى، سيذكر من يخشى، ويتجنبها الأشقى}٨. {واذكر ربك في نفسك، تضرعا وخيفة، ودون الجهر من القول بالغدو والآصال، ولا تكن من الغافلين}٩.

ادعهم إلى معنك، ليقوموا عينك فيك وفي مولاك لك، يوم يقومونك، فقلوبهم وقوالبهم يشهدونك، يوم يعرفونهم ليسوا غيرك، فيعرفون الله لهم بك ليس غيرهم، ويوم يعرفونك ليسوا عينك، يعرفون الله لهم ليس عينهم، كافة للناس ارتضيناك، لقاؤك، بقائهم، لقيامهم، وبقيومك، لقاؤهم في قيوهم حجابا لنا وحجابا لهم، إكبارا لنا، ورحمة بهم، لا حجابا عنا ولا احتجابا منا..

إذا تراصوا مع لبنة وجودك، لوجه ظهورك بعترتك أنت لها أول وهي بك كوثر، لبنات لعين لبنتك، وسجدوا عين سجودك، آباءً وأمهات، صاروا إلى عين موجودك، قلوبا اتحدت فكانت قلبا، وذوات توحدت، فكانت ذاتا، ولبنات بيت تراصت، فكانت بيتا يذكر فيه اسم الله، موضوعا أو مرفوعا، بوجود هو بيت الله، صغر إلى غرفة، أو كبر إلى عالم، أو إلى ساحة رب العالمين في معروف هو الله، حياة الأحياء ومصدر الحياة.

جعلناك شعارا للا إله إلا الله، موجود وجودك، وموجود وجوده، في وجودهم بدوام وجودك، بكرمك وجودك، كرما وجودا، ممن بعثك رحمة مهداة، وقبله مرتضاة، وهيكل لوجه معناه، روحا من الله، وروحا أعظم، وكلمة لله، وجماع كلمات.

أنت كلمة الله بذاتك ومعنك، وكلمة الله بروحك ومبناك، لم تفترق كلمة الله لروحك، عن كلمة الله لذاتك، فكانت قلبا وقلبا كلمة الله، وجماع كلمات لله.. كنت قلبا وقلبا اسم الله، وجماع أسماء لله.. كنت قلبا وقلبا هيكل الله وجماع هياكل لله.. مدينة العلم وباب الإطلاق وسفين الانطلاق، لركب الله لسفن الله ومدن الله.

يُجْزَى الغرفة، لقلبه كعبة وبيتا حراما، وللناس بعثا وقياما، من والاك، ومن فتح قلبه لنور معنك، ويُجْزَى عوالم الوجود لقلبه وأبعاضه وكوثره من تابعك بمبناه لمبناك، فقامت وتقلبت فيه بقلبه لمولاك بالسجود، ولموجودك في قلبه بالوجود، وفي موجوده للحياة بالحياة للشهود.

أنت الحي القيوم، يوم هم بك يحيون، وبك يبعثون، وبك يقومون، قياما لله، له في أنفسهم يسجدون، وله في إدراكهم بعقولهم يدركون، فحصى لا إله إلا الله يدخلون، وشعار لا إله إلا الله يرفعون، علم رؤوسهم وجنان عقولهم، وسر قلوبهم، وحركة قلوبهم، وانطلاق أرواحهم.

إنسانا لله وإنسانية له كنت.. وإنسانية لله وإنسانا له أنت كائن.. وإنسانية لله وإنسانا له تكون.. أنت محمد الله، قديما وأزلا، وأنت محمد الله، قديما وأبدا.. وأنت محمد الله، في قيامك لمحمدك، قدوة للكافة كنت، وللکافة تكون، وللکافة أنت كائن، قديما ارتضيناك، وبقديمك قدوة قائمة أبرزناك، وقدوة متجددة واليناك..

عبدا لمعانا، وربما بمعناك، عبدا فيمن عرفت، وفيمن وصفت، وفيمن قدرت فأكبرت فلاقيت، فيمن ذكرت ففنيت، وربما به فيمن علمت، فكتبنا أبرزت، فيمن إليه سقت، وحكاما تواجدت فيمن أشهدت، فعلماء خلقت وتجلت.

أنت الحياة للناس نائمين ويقظين، فأنت كل الناس بحق الحياة قائمين، وأنت لهم الروح الأمين، وأنت لهم كل الروح بما يكون.. وأنت لهم الحق يبعث ويقوم.. وأنت فيهم كل الحق يبقى ويدوم، فيمن لا شريك له، ولا وصف له، ولا كفاء له، ولا مثل له، ولا غير له، {قل الله، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون}، {هل تعلم له سميا}.

هل كان له اسم به ظهر إلا ما سماه به لنفسه (الإنسان)؟ وهل تسمى فيه بالأسماء إلا (الإنسان)؟ وهل ظهر بالأشياء إلا (الإنسان)؟ وهل عرف ما يليق أن يعرف من الحق غير (الإنسان)؟ وهل شرف بما يشرف الحق به إلا (الإنسان)؟

فقال رسول الإنسان، إنسانا، لمن يقبل أن يكون إنسانا، ولن يطلب أن يكون إنسانا، ولن يقنع لو صار إنسانا، قال لمن يتوهم من كائنات البشر والجن والملك أنه إنسان، (ما ظهر الله في شيء مثل ظهوره في الإنسان) ١٢، وما ظهر الله لشيء مثل ظهوره للإنسان، وما ظهر الله إلا بالإنسان، وما ظهر الله إلا للإنسان، وفي نفسه وحسه، {إن كل من في السماوات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا} ١٣.

اتبعوني يحببكم من تطلبون، وله تعرفون، ووجهه بكل موجود تشهدون.. اطمئنوا وأبشروا، فما أنا بينكم مبعوثا بالحق، إلا بشر مثلكم يوحى إليه، وكلكم بشر يوحى إليه، {ونفس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها} ١٤، إنه لا يئأس من روح الله، تدانيه وتوحى إليه، ويوحى بها نورا وكتابا وعلمًا وحكمة، إلا القوم الكافرون.. وإنه لا يئأس من رحمة الله يوم يجاهد لتغيير ما به، إلا القوم الخاسرون.

إن الله يعلم الإنسان عن نفسه في نفسه بنفسه، ويغنيه من عوزه، ويأويه من قطيعته ويتمه، وفي ذلك علما وعملا يكون الدين، {وأما السائل فلا تنهر} ١٥٠. {فأما اليتيم فلا تقهر} ١٦٠. {وأما بنعمة ربك فحدث} ١٧٠. {فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره} ١٨٠. {وأن ليس للإنسان إلا ما سعى} ١٩٠.

هو رب نفسه، يوم يصدق في طلب ربه، {من اهتدى فإنما يهتدي لنفسه} ٢٠٠، وهو فتنة نفسه، يوم يصدق في فتنة نفسه، {ومن ضل فإنما يضل عليها} ٢١٠.

خلق لكم أنفسكم في معانيكم للأنا لنفسه، فسرت أوهامكم في أنفسكم من أنفسكم لهماكل عواملكم، بقوالبكم من الطين، من كونكم لنفسه، بوهمكم، لمادتكم إنها هي أنفسكم، وإنها نفسه، إنها غلالة من طين جعلت فيها فتنتكم، لأنكم بها تحسون بالأنا الكاذب، {إن كيد الشيطان كان ضعيفا} ٢٢٠، وبالحياة في أنها بكم لا تطلبون، وعن الحياة في معناها لكم تغفلون، هي لأناكم في معانكم، له تعمهون، وفي أنفسكم لا تبصرون، وإلى ما فيها لا تتجهون، وقبلتكم فيكم، لا تقصدون، وحوها لا تطوفون، والله في بيته لا تسجدون، ونصب قلوبكم لعالم قوالبكم، لا تقيمون، {جعل الله الكعبة البيت الحرام قياما للناس} ٢٣٠، وأنتم لا تدركون.

ولو اجتمع جنسكم إنسا وعقلا وعقولا، وكنتم نفسا ونفوسا على أتقى قلب رجل منكم به تؤمنون، وبه تعرفون، وأعطيت كلا منكم مسألته ما نقص من ملكي شيء، فمن ملكي لا تخرجون، وعنه لا تنزلون.

فما كان خلقكم ولا بعثكم، ولا يكون، إلا كنفس واحدة. فما كان ولن يكون ذلك علي بعسير، بل هو عندي أمر يسير، {أوليس الذي خلق السماوات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم} ٢٤٠، {إنما قولنا لشيء إذا أردناه أن نقول له كن فيكون} ٢٥٠، {كما بدأنا أو خلق نعيده، وعدا علينا، إنا كنا فاعلين} ٢٦٠، هذا لكم يكون على ما تحقق لمن تحقق له من قبلكم على ما كان.

وما خلق السماوات والأرض، إلا أكبر من خلق الناس، لو كان الناس يعلمون خلق أنفسهم، ويعلمون خلق السماوات والأرض، وإني لمشهدهم يوما، في كرة رابحة من كرات الحياة لهم، خلق أنفسهم، وخلق السماوات والأرض، ومنتخذهم عضدا، يوم يؤمنون بالله ورسوله لقاتمهم بالحق، فلك يعرفون، وبك يقومون، فلي يشهدون، وفي أنفسهم يتحققون.

ذَكَرَ إِنْ نَفَعَتِ الذِّكْرَى، سَيَذَكُرُ مِنْهُمْ مَنْ يَتَّقُونَ، وَهَؤُلَاءِ لِلْحَقِّ يَرْبِحُونَ، وَيَتَجَنَّبُهَا مِنْهُمْ الْأَشْقَى، مَنْ لِلْحَقِّ فِيهِمْ يَعْصَمُونَ، فَلِلْحَقِّ يَخْسِرُونَ، فَرِيقٌ لِلْجَنَّةِ، وَفَرِيقٌ لِلسَّعِيرِ. فَرِيقٌ بِقُلُوبِهِمْ يَحْيُونَ، وَبِقَوْلِهِمْ يَتَطَوَّرُونَ، وَفَرِيقٌ يَهْلِكُونَ لِقُلُوبِهِمْ لَا يَحْيُونَ، وَمَعَانِيهِمْ يَفْقَدُونَ، فَوْقُودًا لِلنَّارِ مَعَ الْأَجْجَارِ بِقَوْلِهِمْ يَكُونُونَ.

إِنَّ الْحَيَاةَ فِي الْإِنْسَانِ، وَإِنَّ الْحَيَاةَ فِي الْحَيَوَانَ، وَإِنَّ الْحَيَاةَ فِي النَّبَاتِ، وَإِنَّ الْحَيَاةَ فِي الْجَمَادِ، إِنَّمَا هِيَ الْحَيَاةُ فِي وَحْدَتِهَا لِمَجْمَعِهَا فِي الْأَحْيَاءِ مِنَ الْبَشَرِيَّةِ، يَكْسِبُونَ مَقَامَهَا. إِنَّ الْأَرْضَ الَّتِي تَحْقُرُونَ، وَنِيَامَا عَلَيْهَا تَمَشُونَ تَرُونَهَا وَهِيَ تَمْدُكُمْ بِالْوُجُودِ، وَتَمْدُكُمْ بِالْحَيَاةِ، يَوْمَ أَنْكُمْ تَسْتَيْقِظُونَ. إِنَّ السَّمَاءَ الَّتِي تَظْلِكُمْ عَلَى مَا تَشْهَدُونَ، كَأَنَّ حَيًّا، تَرُونَهُ وَهُوَ يَمْدُكُمْ بِالْحَيَاةِ، يَوْمَ أَنْكُمْ تَشْهَدُونَ مَا لِلْحَيَاةِ مِنْهُ تَسْتَقْبَلُونَ.

فَبَيْنَ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ أَنْتُمْ تَتَرَدَّدُونَ، دَارًا لَكُمْ فِيهَا تَقِيمُونَ وَبِخَيْرَاتِهَا تَتَعَمَّقُونَ، وَبِهَا تُتَوَاجَدُونَ، وَهَذَا تَشْهَدُونَ، جَنَّةٌ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، أُعِدَّتْ، عَلَى مَسْتَوَى الْمُتَّقِينَ، لَا عَلَى مَسْتَوَى الْعَارِفِينَ، وَلَا عَلَى مَسْتَوَى الْمُتَحَقِّقِينَ الَّذِينَ مِنْهَا يَخْرُجُونَ، إِلَى الْمَطْلُوقِ يَقْصِدُونَ.

يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمَطْمَئِنَّةُ.. يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الَّتِي اتَّقَتْ اللَّهَ وَاطْمَأْنَنَتْ بِهِ، ادْخُلِي فِي عِبَادِي، وَادْخُلِي جَنَّتِي، فَإِنَّهُ لَمْ تَسْعِنِي السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ، وَوَسَعَنِي قَلْبُ عَبْدِي الْمُؤْمِنِ، الَّذِي اتَّسَعَ لَهَا فَوْسَعَهَا وَطَوَّاهَا، وَبِالْحَيَاةِ مَلَأَهَا وَأَغْنَاهَا، وَبِالْمُتَّقِينَ شَخَّهَا، وَبِهِمْ أَبْقَاهَا، وَإِلَيْهِمْ بِخَيْرَاتِهَا زَفَّهَا، وَإِلَيْهَا بِهِمُ الْإِهَاءُ.

مَا قَدَّرْتُمُ اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ، {إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتَى الرَّحْمَنَ عَبْدًا} ٢٧، {وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ} ٢٨، عَبْدًا أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا {وَرَتَّلَ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا} ٢٩، {وَأُذِنَ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ، يَأْتُونَكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ} ٣٠، {ادْعُهُنَّ يَأْتِينَكَ سَعْيًا} ٣١. {فَصْرَهْنَ} ٣٢، إِنَّا لَنَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِإِمَامِهِمْ، إِنَّا لَنَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ مِنْ إِمَامِهِمْ، إِنَّا لَا نَلَاقِي أَنَسًا إِلَّا فِي إِمَامِهِمْ، إِنَّا لَا نَنْظُرُ إِلَّا إِلَى عَبْدٍ لَنَا، هُوَ الَّذِي عَرَفَ أَنَّهُ لَيْسَ غَيْرِنَا، فَمَا نَنْظُرُنَا إِلَيْهِ، إِلَّا نَنْظُرْنَا، نَظْرًا مِنْ إِيْنَانَا.

هُوَ {الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ وَتَقْلِبُكَ فِي السَّاجِدِينَ} ٣٣، فَمَا كَانَ عَبْدًا لَنَا إِلَّا مَنْ كَانَ فَرْدًا بِنَا وَكُوْثَرًا بِنَفْسِهِ وَجُوهَا لَنَا، (الْمُؤْمِنُونَ كَأَعْضَاءِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ) ٣٤. (الْمُؤْمِنُ مِرَاةُ الْمُؤْمِنِ) ٣٥. (الْمُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبَنِيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا) ٣٦. بِيُوتٍ يَذُكَّرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ، بِهِ جَاءَ الْحَقُّ بَيْتًا وَضَعُ لِلنَّاسِ بِنَصْبِ قَامٍ بَيْنَهُمْ، لِلْعِلْمِ بِهِ وَالْعَلْمِيَّةِ عَلَيْهِ.

إِنَّ مَنْ قَامَ فِي رَسُولِ اللَّهِ، بَيْتًا يَذُكَّرُ فِيهِ اسْمُ اللَّهِ، دَخَلَهُ إِيمَانًا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ لِقَائِهِ وَدَائِمًا عَتْرَتَهُ لِكِتَابِهِ بَيْنَ النَّاسِ لِلنَّاسِ دَخُولًا فِي عَهْدِهِمْ وَمِيثَاقِهِمْ، سِيرًا فِي طَرِيقِ اللَّهِ وَعَهْدِهِ وَمِيثَاقِهِ بِمَتَابِعَتِهِمْ عَلَى عَهْدِهِ وَوَعْدِهِ، كَانَ مَحَلَّ نَظَرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ الْمُتَكَبِّرِينَ، وَلَا الرَّسُولَ لِدَائِمِ رِسَالَتِهِ، إِنَّ اللَّهَ لَا يَحِبُّ كُلَّ مَخْتَالٍ نَخُورٍ، {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ، حَتَّى يَحْكُمَكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ

حرجا مما قضيت ويسلموا تسليما} ^{٣٧}، (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ماله وولده ومن نفسه التي بين جنبيه) ^{٣٨}، (لا يؤمن أحدكم، حتى يكون هواه، وفقا لما جئت به) ^{٣٩}، {وما كان لمؤمن أو مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمرا أن يكون لهم الخيرة من أمرهم} ^{٤٠}، فهل يغيب الرسول عن الشهود، فتتعطل كل هذه القوانين والنواميس؟ وهل يقضي الله ورسوله، إلا ما فيه خير الناس، إلا ما فيه سعادة الناس.. إلا ما فيه نجاة الناس.. إلا ما فيه نعمة الناس.. إلا ما فيه إحياء الناس؟ إن الناس بعيدا عما يقضي به الله ورسوله لهم، إنما يقضون في أمرهم بما يهلكهم. والله مجدد لهم بينهم من أنفسهم من يجدد لهم أمور دينهم بعترة الرسول، في تكاثرهم تكاثرا بهم لهم لدوام رسالته إليهم بينهم ليبين لهم الرشد من الغي.

{أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين} ^{٤١}.. {فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر} ^{٤٢}.. {إنا هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا} ^{٤٣}، إذا كشفنا عنه الغطاء، فرآه مؤمنا لمؤمن حمد الله، أو رآه نفسا لنفس، عليه أن يغير ما بنفسه من نفس ليغيرها وما بها، ويبدلها بالإيمان بالله ورسوله، بتغيير ما بها من الظلام، إلى ما يجب أن يسري فيها من نور الله برسالته، من مصابيح الله.. من هداة الله.. من عباد الله.. من سبل الله.. من أحواض رحمة الله.

إن النفس إذا عرفت نفسها، بما هي، ورجعت إلى الله، بما جعل الله لها من إدراك وعقل على ما هو، فطلبت الإنظار، لأنظرها الله، حتى يعطيها الفرصة لمحاولة التغيير لما بها، ولو فعلت في قائمها بعاجلتها لربحت.. ولو طلبت التكرار بعد فشل، ما خزها الله حتى تفيق إلى أمر الله.

إن الله بالغ أمره، مهما طال الزمن، ومهما تعددت الكرات الخاسرة، (إنما خلقتكم للأبد، وإنما تنقلون من دار إلى دار) ^{٤٤}.. (والله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تفتح لكم الدنيا، فتنافسوها، كما تنافسها الذين من قبلكم، فتأكلكم كما أكلتهم) ^{٤٥}.. إن خلقة الله للإنسان، لا تبدأ إلا بعد خلقة الإنسان لنفسه باسم الله لاعتقاده وإيمانه. أما حاضره من المادة فهو ما زال مادة.

إن الإصلاح والإصلاح، إذا لم يبدأ من إصلاح القلوب، ما فُرِّجت كروب، وما أزيلت عيوب، وما نظرت للعيون الغيوب، وما أدركت عقول، وما استقامت جوارح. (إن ذرة من عمل القلوب خير من أمثال الجبال من عمل الجوارح) ^{٤٦}.. إن قلب محمد لقلبه، غير الدنيا والآخرة إلى جانبه، خفضت له نواميس الوجود، وسجدت معه له فيها، مبعوثة بالحق، إيمانا بمن بعث به بالوجود للشهود، وقام بين يديه الكل لربه بالسجود.

ما عَرَفَ الناسَ محمداً إلا قالبا.. وما لاقوا في الله به إلا قلبا، فهل عَرَفَ محمد للناس؟! قلبا لقلوبهم؟! وقالبا لقلوبهم؟! منه بدأت على أرضكم وفي سماواتها الحياة.. وبه عرفت النجاة.. وبه استقامت الدنيا.. وبه أُسعدت الآخرة.. وبه اجتمعت الدنيا والآخرة في دين لأهل اليقين.. نعمة الله.. وهدى الله.. ونور الله.

قام بمعناه، لقدوته وبشراه، فردا وبيتا وجمعا وأمة، وإنسانية، وطبقات إنسانية، ترفع طبقا عن طبق، وطبقا فوق طبق، وتبعث طبقا بعد طبق، وترد طبقا بعد طبق، لمن لزم لهم البعث إلى أرض الصدع، به تواصل النفوس صعودها، لمن صلح لدوام الصعود أو هبوطها برسالة إصلاح أو تحقيق لصالح، أو سجودا لله، أو مواصلة للسجود، أو تخلصا من نقص واستكالا لوجود.

فما ظهرت أمة إلا بالسجود لله لعاليها، أو بدعوة للسجود لدانيها ومواليها من أهل الحق فيها مهما أقامها الله بقلوبها، وأظهرها بهياكلها، قبلة لكل عابد، وحقا لكل ساجد، معنى لله للشهود بكل مشاهد، سواء من قبل محمد، الذي عرفت البشرية ذاتا، أو من بعد محمد الذي لم تعرف، والذي أنكرته البشرية حقا وروحا وصفاتا، فما كان رسول الله إلا قضية في الله، وأمرا في الله، وصفة لله، وحقا من الله، إنه الطريق والحق والحياة.

لقد كان الحق بمحمد الله قبل النبوة قبلة الأنبياء، وروح قدس الله لهم، ثم قام آدما بناموس دورته، ختما وخاتما لما قبله، وختما وبادئا لما بعده، قام بكوثره أنبياءً بعثا لأنبياء، وحكماء بعثا لحكماء، وأولياء بعثا لأولياء، وعبادا للرحمن بعثا لعباد للرحمن.

فكان بين قبله وبعده، العروة الوثقى، لا انفصام لها، عن الخلق الأبدي، وعن الحق السرمدي بالإنسان الأزلي، للإنسان الأبدي، للمعبود السرمدي.. شرف الإنسان، لعينه عند الإنسان لقائم الوجه والعلم والعنوان.

به عَرَفَ الله حق معرفته.. وبه قام الحق، حق قيامه بالناس، لقائم الإنسان، (خلفت الله عليكم)٤٧.. {قائم على كل نفس}٤٨، فبه قام الناس في واحدة عالم، لأحدية حق عالم، بين حكماء وأولياء، وأنبياء، وعباد وأتقياء، ومؤمنين وشفعاء، وأئمة وأحواض، وشهودا وأشهاد، أربابا ومربوبيين، في المعبود الواحد والموجود الواحد، في لا إله إلا الله، والله أكبر.

هذا هو دين الإسلام، فجددوا في الإسلام إسلامكم، واطلبوا في الإسلام إيمانكم، وانتظروا في الإيمان معرفتكم في لا إله إلا الله، محمد رسول الله.

اللهم ارحمنا وجددنا بمن ذكرناه، وما عرفناه.. وبمن عرفناه وما ذكرناه.. اللهم كن لنا بمن والينا وما والينا، وبمن وقناه وما قناه.

اللهم اغفر لنا بمن رددنا اسمه بيننا لفظاً، كما رددنا اسمك لفظاً لا قائم له، ولا قيوم به، ولا موجود لنا فيه، ولا وجود له فينا.

عنك وعننا، وعن السماوات والأرض أبعدناه، بوهم الإكبار! ومنا أخليناها باسم الإدكار! وفي وجوده، ما دخلنا فتواجدناه، باسم الإكبار!

صار الدين بيننا لفظاً.. والكتاب عندنا نعماً.. والرسول عندنا مادية وقبراً.. والتاريخ عندنا كتاباً وخبراً، لا اعتباراً ولا حساباً، ولا مذكراً ولا ذكراً، وأصبح القرآن قصصاً.. وأصبحت أحداث الاعتبار خبراً. ها أنت، تدير الزمان في عصرنا على ما دار في عصره، وترهص الأحداث، على ما أرهصت لمقدمه وذكره، والناس نيام يفتقدون السلام، والسلام بأيديهم، يوم تفتح منهم العيون، وتتحرك في رؤوسهم العقول، فتهتز في صدورهم القلوب، فيدركون، فيعلمون، فيبصرون، فيستيقظون، فيرعون، فيجدون لهم برسالة الروح بينهم طريقاً إلى السلام والأمان، وباباً إلى الإسلام، فيدخلون في السلم كافة، بمسألة بعضهم بعضاً، بالدنيا مؤثرين، وفيها زاهدين، وعبادتها كافرين، وبالله وقربه ووصلته قانعين {أليس الله بكاف عبده} ٤٩.

إنهم يطلبون الدنيا ويطلبون المال، وما خلقت الدنيا إلا لهم، وما خلق المال، إلا من أجلهم، أما إنهم في المال يعدلون، وفي الدنيا يقسطون، وعلى أرضها أحراراً يتحركون، فلذلك خلقهم، ومن الذي من هذا منعهم أو يمنهم؟

ولكن الذي خلق لهم الدنيا، خلقهم هم لنفسه، ولو عرفوا ذلك، فحرصوا على وجودهم، لنفسه، وطلبوا موجوده بينهم بنفسه.. لاستقام أمرهم دون تشريع، وإن شرعوا، فبالحكمة، وبالرحمة، وبالعدل، وبالاستقامة بما هداهم يشرعون ويحكمون. {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون} ٥٠.

ولكنهم بعيداً عن صلاحية القلوب وأهلها، لا يستقيم لهم أمر، ولا يسكن للناس بين جوانحهم قلب، ولا يهدأ في الرؤوس عقل، ولا تطعم في القوالب نفس، {أليس الله بكاف عبده} ٥١. {وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون، ألا إنهم هم المفسدون، ولكن لا يشعرون} ٥٢. (من كسب الله وخسر الدنيا ماذا خسر، ومن كسب الدنيا وخسر الله ماذا ربح) ٥٣.

إن الصلاح إن لم يبدأ من جوانية الخلق، لا تصلح لهم برانية. إن القلب الصالح، بصلاحيته، يعادل الناس جميعا في قوته.. إن القلب الصالح لا يتعارض مع قلب صالح في البشرية، لن يتصارع قلب صالح مع قلب صالح، لا ولن تتصارع نفس صالحة مع نفس صالحة، لا ولن يتنازعا عقل صالح مع عقل صالح، إن الله هو الناس، يوم يتحاب الناس، أما يوم يتباغض الناس، ويتنافر الناس، ويقسو الناس، بعضهم على بعض، فهم أبعد ما يكونون عن الله، والله أبعد ما يكون منهم.

يجبهم ويحبونه، يوم يتحابون، ويرتضيهم ويرتضونه يوم يتراضونه. إن القائم على كل نفس، هو نجوى كل نفس في كل مجتمع يتناجى به فيه عليه، ذاكرا له، في جماعه أو في نفسه، بذلك جاء الإسلام دينا للفطرة. هكذا كان الناس قبل فرد محمد وآله وأمته له، عرف.. وهكذا كانت أمة محمد سرمدية بقبله بها، صار لها من بعده لا انقطاع لها، لقائم رسالة الله.. وهكذا يكون الناس بعد فرد محمد أول قيمة على الناس.

إذا قصرنا أمة محمد، على ذات محمد بجمعه يوم شهد بين جمع من الناس باسم محمد، فقد ظلمنا أنفسنا، وما عرفنا رسول الله. فإن محمدا الذي جعل له نور من الله به يقوم ويتقلب في الساجدين، وبه يمشي في الناس، محمد الذي أعطي الكوثر لدوام قدوته، والذي جعل شائته الأبر ليقين نصرته.. محمد الذي هو الحق والحق أنزل، وبالحق نزل ودائما ينزل.. إنما هو أمر قديم في الله، يتعدد بالقيام في ظاهر الحياة على ما هو في باطن الحياة.

محمد رسول الله والذين معه، كلها قام، وكلها تجدد، وكلها تجددت معه أمته، أشداء على الكفار رحماء بينهم، أعزاء بالله تمنح العزة بالله من الله بهم، يعتزون بالله ولا يطغون به.. يحكمون بالله، ولا يأكلون به.. يعلمون بالله، ولا يستعمرون به.. يقومون بالله، ولا يفجرون به.. شعارهم لا إله إلا الله، ومحمد بينهم دائما رسول الله. يتجدد كلها تجدد الناس أمة له، وتتجدد أمته كلها تجدد بين الناس رسولا له، هكذا في دوام هو دورة آدم الخلق يظهر، وهو جيئة إنسان الحق بالروح ينتشر.. إنه قام في ظل ناموس، ويقوم في ظل ناموس، ولن يقوم بعيدا عن الناموس، وما قام فيما قام بعيدا عن الناموس. ها هو بالناموس، بالوسطاء والأرواح المرشدة يجدد رسالته وأمره، ويرفع الله به بين الناس ذكره.

فكان هو الناموس، وقيامه الناموس، (إن الإسلام دين الفطرة)^{٥٤}، (علماء أمتي كأنبيا بني إسرائيل)^{٥٥} (الخير في وفي أمتي إلى يوم القيامة)^{٥٦}، (أول من تنشق عنه الأرض أنا)^{٥٧} (أقربكم مني منازل في القيامة أحاسنكم أخلاقا)^{٥٨}.

هل عرفنا محمدا كذلك؟ وهل عرفنا محمدا بذلك؟ إن الزمان يستدير على هيئته، كيوم خلقه الله، كلها استدار على هيئته، كيوم أبرز الله محمد الله، ومحمد الناس، ومحمد محمد.

لا إله إلا الله محمد رسول الله.

مصادر التوثيق والتحقيق

سورة فصلت - ٦ ، سورة الكهف - ١١٠	١
سورة القلم - ٤	٢
سورة الإسراء - ٨١	٣
في معنى مقولة الإمام عليّ كرم الله وجهه: "إِسْتَغْنِي عَمَّنْ شِئْتَ فَأَنْتَ نَظِيرُهُ وَإِحْتِجَّ إِلَى مَنْ شِئْتَ فَأَنْتَ أَسِيرُهُ وَأَحْسِنُ إِلَى مَنْ شِئْتَ فَأَنْتَ أَمِيرُهُ".	٤
سورة الأنبياء - ٣٤	٥
سورة الشرح - ٧	٦
سورة الأنعام - ٩١	٧
سورة الأعلى - ١١:٩	٨
سورة الأعراف - ٢٠٥	٩
سورة الأنعام - ٩١	١٠
سورة مريم - ٦٥	١١
مقولة صوفية تعبر عن مقام الإنسان تكليفة الله.	١٢
سورة مريم - ٩٣	١٣
سورة الشمس - ٨:٧	١٤
سورة الضحى - ١٠	١٥
سورة الضحى - ٩	١٦
سورة الضحى - ١١	١٧
سورة الزلزلة ٧-٨	١٨
سورة النجم - ٣٩	١٩
سورة الإسراء - ١٥	٢٠
سورة الإسراء - ١٥	٢١
سورة النساء - ٧٦	٢٢
سورة المائدة - ٩٧	٢٣
سورة يس - ٨١	٢٤
سورة النحل - ٤٠	٢٥

- ٢٦ سورة الأنبياء - ١٠٤
- ٢٧ سورة مريم - ٩٣
- ٢٨ سورة الروم - ٢٧
- ٢٩ سورة المزمل - ٤
- ٣٠ سورة الحج - ٢٧
- ٣١ سورة البقرة - ٢٦٠
- ٣٢ سورة البقرة - ٢٦٠
- ٣٣ سورة الشعراء - ٢١٨:٢١٩
- ٣٤ حديث شريف: "مثل المؤمنین فی توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى." صحيح مسلم.
- ٣٥ حديث شريف: "المؤمنُ مرأةُ المؤمن، والمؤمنُ أخو المؤمن يكفُ عليه ضيعةً، ويحوطه من ورائه." أخرجه البخاري وأبو داود، والبزار والطبراني
- ٣٦ حديث شريف: "المؤمنُ للمؤمنِ كالبنيان يشدُّ بعضه بعضاً وشبك بين أصابعه." صحيح البخاري.
- ٣٧ سورة النساء - ٦٥
- ٣٨ إشارة إلى الحديث الشريف: "كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم وهو أخذ بيد عمر بن الخطاب، فقال له عمر: وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا نَفْسِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ، قَالَ عُمَرُ: فَأَنْتَ الْآنَ، وَاللَّهِ، أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الْآنَ يَا عُمَرُ." صحيح البخاري. "والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين." متفق عليه.
- ٣٩ حديث شريف: "لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعاً لما جئتُ به"، أخرجه ابن أبي عاصم، والخطيب، والبيهقي باختلاف يسير.
- ٤٠ سورة الأحزاب - ٣٦
- ٤١ سورة يونس - ٩٩
- ٤٢ سورة الكهف - ٢٩
- ٤٣ سورة الإنسان - ٣
- ٤٤ مقولة للخليفة الخامس عمر بن عبد العزيز. أخرجه أبو نعيم الأصبهاني في كتابه حلية الأولياء وطبقات الأصفياء
- ٤٥ حديث شريف: "فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكني أخشى أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم، فتنافسوها كما تنافسوها، فتهلككم كما أهلكتهم." صحيح البخاري.
- ٤٦ مقولة صوفية ينسبها البعض لحكم السيد أحمد بن عطاء الله السكندري، والبعض يقول إنها ترجع للإمام أبي حامد الغزالي.
- ٤٧ عبارة للسيد رافع يمكن تأمل معناها ومغزاها في السياق.

- ٤٨ سورة الرعد - ٣٣
- ٤٩ سورة الزمر - ٣٦
- ٥٠ سورة المائدة - ٤٧
- ٥١ سورة الزمر - ٣٦
- ٥٢ سورة البقرة - ١١:١٢
- ٥٣ استلهاما من قول المسيح عليه السلام: "لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه، أو ماذا يعطي الإنسان فداءً عن نفسه؟" (مر ٨: ٣٦، ٣٧)
- ٥٤ إشارة إلى الآية الكريمة {فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} والحديث الشريف: "كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهودانه، أو ينصرانه، أو يمجسانه. صحيح ابن حبان. كما أخرجه البخاري ومسلم مطولا.
- ٥٥ حديث شريف يعتبره المحدثون أنه لا أصل له. لكن معناه صحيح ويوافق الحديث الشريف "إن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارا ولا درهما، ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر." أخرجه أبو داوود واللفظ له، والترمذي، وابن ماجه، وأحمد. والحديث الشريف: "إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها." أخرجه أبو داوود والحاكم.
- ٥٦ تقول معظم كتب الأحاديث الشريفة إنه لم يثبت عن الرسول كحديث شريف، ولكن معناه صحيح ويتوافق مع الحديث الشريف: "لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق، لا يضرهم من خذلهم، حتى يأتي أمر الله وهم كذلك" أخرجه مسلم والبخاري بنحوه وغيرهما عن جمع من الصحابة بألفاظ متقاربة.
- ٥٧ من الحديث الشريف: "أنا سيد ولد آدم ولا نخر وأنا أول من تنشق الأرض عنه يوم القيامة ولا نخر وأنا أول شافع وأول مشفع ولا نخر ولواء الحمد بيدي يوم القيامة ولا نخر." صحيح ابن ماجه.
- ٥٨ حديث شريف: "إن أحبكم إلي أحاسنكم أخلاقا الموطؤون أكفا الذين يألون ويؤلفون، وإن أبغضكم إلي المشاؤون بالتميمة، المرفقون بين الأحبة." أخرجه أحمد والطبراني وابن حبان.